المبحث الثاني

• قليل من التفاؤل •

في هذا المبحث (أربع صفحات) يلقي الدكتور هوفمان نظرة سريعة على الواقع الإسلاميّ المعاصر ، وعلاقة الغرب به .

وهو يشير أولاً إلى أن تقدمًا ملموسًا ، وتطورًا حسنًا حدث في الواقع الإسلاميّ المعاصر ، رائيًا أن وصف ما كان عليه المسلمون إجمالاً قبل حدوث هذا التطور ، ضروري لإدراك قيمة التطور الذي حدث .

لم يتوسع المؤلف في وصف الواقع الإسلاميّ قبل التطور الجديد فحصر إشارته في أرض الحجاز (مكة والمدينة) ، وما كان يلاحظ فيهما من سلبيات ، واعتمد على ملاحظات أبداها الحجاج الغربيون ، مثل بروكارت السويسري ، الذي عاش في مكة والمدينة ستة أشهر ما بين عامي ١٨١٤ ، ١٨١٥م ، والأستاذ ريتشارد بيرتون الإنجليزيّ ، الذي عاش في مكة والمدينة عام ١٨٥٣م ، وهينريش فرن مالتزان ، الذي عاش في مكة ، وهو غير مسلم ، عام ١٨٦٠م.

وأن هؤلاء الثلاثة كتبوا ملاحظاتهم عن التخلف الذي شاهدوه في تلك المدينتين المقدستين ، ثم قال:

«اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة (في تلك الأزمنة) : القذارة ، انعدام الأمن ، انتشار الخرافات ، وصدق أو لا تصدق : شرب الخمور والدعارة حول الحرم ، بل وحتى داخله أحيانًا »؟! [ص١٥].

مضيفًا إلى ذلك الفوضى في تأدية الصلوات في الحرمين الشريفين حتى بين الحجاج أنفسهم[1] ؟ ، وهبوط عدد الذين يحجون ويعتمرون ، ثم أشار إلى ما أصاب العالم الإسلاميّ كله بعد غزو نابليون بونابرت لمصر ، وتفكك عرى الإمبراطورية العثمانية ، فيما بين القرنين التاسع عشر ، والعشرين الميلاديين .

هذه الكوارث جعلت السياسيين الغربيين ، والمستشرقين أدوات الغزو الفكري والعقلي والديني لحساب الاحتلال الأوروبي ، جعلت تلك الكوارث هؤلاء جميعًا ينظرون إلى الإسلام باعتباره حضارة آخذة في الاندثار، وتوقعوا اختفاء الإسلام من الوجود تماما؟! .

رأوا كل قيم الإسلام تذبل إلا شيئًا واحدًا ، هو عقيدة التوحيد حيث كان المسلمون شديدي الحرص على بقائها شامخة في قلوبهم .

• ملامح التطور الجديد •

ثم عاد المؤلف (د. هوفمان) يرصد ملامح التطور الجديد ، الذي خيب آمال ساسة أوروبا ومستشرقيها .

بادئًا بالإصلاح العمرانيّ ، الذي قامت به المملكة العربية السعودية في إطار الحرمين الشريفين في عهد خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز ، ويشير إلى أن التوسع في مساحات الحرمين تم بجمال واقتدار ثم توفير الأمن والراحة للحجاج ، وندرة السرقات ، ومنع المواد المحرمة كالخمور ، والنساء لا يدخلن البلاد منفردات بل لا بد من وجود محرم لكل امرأة .

ثم الزيادة الهائلة في عدد الحجاج ، وعمارة الحرمين بالصلاة على مدار الساعة ، أمام أنظار العالم كله (يشير إلى إذاعة الصلاة عبر الأقمار الصناعية صوتًا وصورة وحركة) .

---

(١) في تلك الأزمنة كانت الصلاة تقام في الحرم أربع جماعات في الوقت الواحد حسب التصنيف المذهبي الفقهي . فللحنفية إمام ، وللمالكية إمام ، وللشافعية إمام ، وللحنابلة إمام. ثم تبدل الحال الآن ، وأصبح المسلمون في مواسم الحج وغيرها يصلون خلف إمام واحد . وبأذان واحد .

ويشير المؤلف أن هذه النهضة ، مع نظائر لهـا سيأتي ذكرها ، غيرت نظرة الغـرب إلى الإسلام ، الذي توقـعوا زواله من قـبل في ظل انحطاط المسلمين وتخلفهم ، وأن هذه النظرة الجديدة للإسلام بدأت من الربع الأول من القرن العشرين ، فأقبل كثير من المفكرين الأكاديميين في الغرب يدرسون الإسـلام بكل تقدير واحـترام ، ولم يـسع بعضـهم إلا اعتناق الإسـلام ، ومنهم من هو يكاد يسلم ، كان المسـتشرقون من قـبل ينظرون إلى الإسلام نظرة تقزز واشمئـزاز ، وسبب هذه النظرة هو تخلف المسلمين ، فلما بدأوا النهوض من كبوتهم بدأت نظرة الغـرب إلى الإسلام تتحسن ، حتى بلغت درجة الإقناع التام ، ومن لم يسلم منهم بدأ يتعاطف مع الإسلام .

ولا يغفـل المؤلف دور الصحـوة الإسلاميـة المعاصـرة ، وبوادرها في غضون هذا القرن العشرين .

فتراه يرصد حركات المصلحين من العرب وغيرهم ، ويطلق على هذه الصحوة مصطلحًا آخر « حـركات إحياء الإسلام» [ص١٦] ، ويصدر هذه الحركات بحركة الإخوان المسلمين ، التي أسـسها حسن البنا ، ودعاتها من بعده ، مثل: سيد قطب ، محمد الغزالي ، أبي الأعلى المودودي .

والحركة الـوهابية ، والحركة السنوسـية ، وهما الدعوتان اللـتان قام بهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الرابع عـشر الهجري ، وكان مـحورها محاربة البـدع ، والخرافات وتنقية الإسلام مما لحق به في العقيدة والسلوك.

ثم الشيخ محمد بن عليّ السنوسيّ في القرن الثامن عشر الميلادي في شمال غرب إفريقـية (الجزائر) وهي قريبة الشبة في مضـمونها بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

وكان لهاتين الدعوتين آثار طيـبة في بث الروح الإسلاميّ في عدد من بلاد المسلمين .

كما أشار إلى حركة الشيخ محمد عبده ، وأشاد بعمق بجهود الملك فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين الشريفين) ، في طبع المصحف الشريف بكميات هائلة ، وتوزيعه على مستوى العالم الإسلاميّ .

ويرتب المؤلف على ظهور هذه النهضة أمرين :

الأول : ما سبقت الإشارة إليه من تغيير نظرة الغرب إلى الإسلام كقوة لا تقبل الزوال .

والثاني : يعبر عنه المؤلف بقوله : «والخلاصة أن ذلك التطوير نظر إليه كتهديد أصولي مما جعل الإسلام يحتل القمة فيما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الحالي » [ص١٧] .

ثم يستخلص المؤلف بعد هذا العرض القصير لملامح النهضة الإسلامية المعاصرة ما يأتي :

* لا يتوقع اليوم أحد أن يختفي الإسلام، ولكن أن يمتد بل وينفجر .

* أن جنرالات «الناتو» - وكان المؤلف يرأس جهاز استخبارات الناتو كما تقدم - بدأوا يضعون في حساباتهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، بل بين الشمال الصليبيّ والجنوب الإسلاميّ؛ فالإسلام في نظر الغرب أصبح العدو المرتقب [ص١٧] .

وكعامل مساعد على نمو النهضة الإسلامية المعاصرة يشير المؤلف إلى الزيادة المطردة للمسلمين في الغرب ، وبخاصة في ألمانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا .

كما يشير إلى انتشار المساجد في تلك البلاد ، وفي موسكو ، وبإنشاء الجامعة الإسلامية (افيروس) التي أقامها المسلمون الأسبانيون في عاصمة الخلافة الإسلامية القديمة (قرطبة) في عام ١٩٩٤م بعد خمسمائة عام من رحيل الإسلام عنها ، ويتوقع المؤلف أن تعود المساجد في أسبانيا

وترفع الأذان خمس مرات في اليوم .

كما يتوقع - مثلما توقع ليوبلد فانس الذي أسلم وتسمى «محمد أسد» في كتابه العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » - أن الدعوة الإسلامية ستصبح هي الدعوة الناجحة في الغرب الصليبي ، وفي البلاد التي كانت تسيطر عليها الشيوعية قبل عام ١٩٩٠م.

وأن السبب في نجاح الدعوة الإسلامية ، المتوقع في تلك البلاد يعتمد على أمرين :

- الخواء الروحي الذي بدأت أوروبا تشعر به الآن .
- إفلاس النظام الشيوعي قبل مرور مائة عام على ظهوره ، والتهويل من شأنه .

• تعقيب :

نحن مع الدكتور مراد هوفمان في قليل تفاؤله نحو مستقبل الإسلام ، ولكن المناخ العام الذي أشار إليه ، الذي يمهد الطريق لرواج الإسلام في الغرب - لا يكفي لنجاح الدعوة الإسلامية في تلك البيئات .

فلا سقوط الأيديولجية الشيوعية كاف ، ولا شعور الغرب بالخواء الروحي ، وزهده غير المعلن في موروثاته الدينية كاف لانتشار الإسلام هناك . ولا كثرة المساجد ، ولا تزايد الأعداد الإسلامية ، كل هذه العوامل - وحدها - لا تكفي في انطلاق الدعوة الإسلامية في الغرب، والنهضة الإسلامية المعاصرة ، التي حملت المؤلف على قليل تفاؤله ما يزال ينقصها الكثير من الإصلاحات ، وما يزال أمامها الكثير من العقبات .

فالعمل الإسلاميّ الآن مفكك إذا وجد ، ومجزأ ، بل إن بعضه يقاوم بعضه .

الصحوة الإسلامية صحوة شعوب وأفراد ، ولم تصل بعد إلى

مستوى النظم الحاكمة ، فما أكثر الشعوب المتحمسة لعودة الإسلام ، ولكن حماستها تجد معارضة عنيفة في بعض الدول الإسلامية ، تصل إلى حد التجريم والتأثيم والعقاب .

وساسة الغرب الصليبيّ ، وبقايا الشيوعية ، والصهيونية العالمية تقف حجر عثرة أمام الزحف الإسلاميّ .

وبعض الشعوب الإسلامية ، والأقليات الإسلامية معرضة للاضطهاد في كثير من دول العالم .

والمشروع الغربي (العولمة) تسعى الدول الكبرى إلى فرضه على العالم الإسلامي ، وأمريكا أعدت بديلاً عن الأديان ، والمقصود الإسلام ، ذلك البديل هو « الكهنوت العالمي » ، الذي سيعلن عنه في حينه عندما تواتيهم فرصة إعلانه وفرضه .

إن هذه العراقيل تجعل الإسراف في التفاؤل نوعًا من خداع النفس .

وقد لمس المؤلف ما يمر به العالم الإسلاميّ - الآن - من ضعف مزرٍ ناشئ عن غياب الوحدة الإسلامية :

ضعف سياسي ، وضعف عسكري ، وضعف في مجال العلوم الحديثة ، التي هي سبب تفوق الغرب المادي على العالم الإسلامي ، هذا الضعف بأنواعه ليس ذاتيًا فنيًا ، ولكنه أمر فرضناه على أنفسنا بتفككنا وتنازعنا وتبعيتنا المهينة للقوى الكبرى وخلو واقعنا من وضع مشروع يعيد للأمة هيبتها ، ويحفظ لها هويتها الإسلامية الشاردة .

كم من الأحداث العالمية تقوم ونحن غائبون ؟ وتنتهي ونحن غائبون.

في يد الأمة ورقات رابحة لم تستثمرها، وسلاح ماض لم تستخدمه، ولكي تنجح دعوة الإسلام في الغرب لا بد من إزالة كل هذه العوائق، مع وضع برنامج إسلامي عام لنجاح تلك الدعوة، فالمناخ السلبي لا يفيد.

والمسلمون ليسوا مفتقرين إلى حق يدعون إليه ، وكوادر وأدوات تحمل تلك الدعوة ، وإنما هم في أشد الحاجة إلى محاسبة أنفسهم ، ووضع أقدامهم على الطريق الموصل إلى تلك الغايات العظمى .